جهاد شعب فلسطين ضد الهجرة اليهودية والصهيونية

● د . إسماعيل أحمد ياغي ●

فلسطين قلب العالم العربي والإسلامي ، ولها أهمية دينية لدى أصحاب الديانات السماوية كما أنها ذات موقع استراتيجي هام ، جعل منها جسراً يربط قارات العالم القديم ، وممراً عالمياً ومرتكزاً لعدد كبير من الحضارات . وكانت أرضها - التي وصفتها التوراة أرض السمن والعسل - مسرحاً لحروب طاحنة ومكاناً للاقتتال بين الغزاة والجيوش المتجهة إلى مصر وبالعكس وبين سكانها الكنعانيين العرب . ومع ذلك فقد ظلت فلسطين كنعانية عربية صفة وسيادة ، ذلك أن صلة العرب بفلسطين لم تنقطع منذ أقدم العصور وحتى الفتح الإسلامي . وظل العرب يشكلون الكثرة العددية الغالبة في البلاد وتعضد وجودهم بمن جاء إليهم من عرب الجزيرة مع الفتح العربي الإسلامي ، الذي صبغ البلاد بطابعها العربي لغة وثقافة وتاريخاً ومصيراً[(١)] وسادت في البلاد مظاهر الحضارة العربية الإسلامية .

ومنذ الفتح الإسلامي لفلسطين عام ٦٣٧م أصبحت فلسطين جزءاً لا يتجزأ من الدولة العربية الإسلامية واستقر العرب المسلمون فيها وتكاثروا . وكان اليهود قد غادروها وتفرقوا في الأرض منذ القرن الأول الميلادي عندما طردهم الرومان منها . ولم يبق منهم إلا قلة ذابت في المجتمع العربي وضاعت معالمها كفئة لها أهداف أو طموح سياسي لا بل عاشوا في رحاب[(٢)] الدولة العربية الإسلامية حياة حُرية وعدل وتسامح بمقتضى القيم التي نص الإسلام على معاملة أهل الكتاب بها . وقد حمل الفتح العربي الإسلامي اليهود إلى أفريقيا الشمالية وإلى أسبانيا (الأندلس) وعوملوا هناك معاملة حسنة في حين كانت أوروبا تضطهدهم[(٣)] وفي ذلك يقول ...

نجيب صدقه « وفي حين كانت أوروبا الغربية المسيحية تضطهد اليهود باسم الدين وتذيقهم ألوان العذاب في القرون الوسطى ، وتضطرهم إلى النزوح إلى شرقي أوروبا وغربيها ، كانت الدولة العربية توليهم أسمى المناصب وتعترف لهم بحق المساواة المطلقة فيتجرون ويثرون ، ويبلغون شأواً في السياسة والإدارة والاقتصاد لم يسبق له مثيل »[(٤)].

وانطلاقاً من تعاليم ديننا ، عاش العرب واليهود أجيالاً في فلسطين في سلام ووئام ، ولم تكن للحوادث النادرة التي تحدث بينهم في بعض الأحيان إلا مظهراً من مظاهر أي مجتمع متعدد الطوائف والأجناس . ولذلك كانت المنازعات القليلة التي حصلت قبل أن تتكشف أهداف الغزو الصهيوني حالات فردية وعادية .(٥) فلم يشعر عرب فلسطين تجاه اليهود بأي إحساس يضر بالمصالح القومية للشعب الفلسطيني ، فقد كانت صلة اليهود بفلسطين مجرد صلة دينية عاطفية ورغبة لدى بعض الفئات اليهودية المتدينة في الإقامة قرب الأماكن المقدسة للتعبد وممارسة الطقوس الدينية لقضاء أيامهم الأخيرة في المدن الأربع المقدسة (القدس ، صفد ، لبريا ، الخليل) ناهيك عن أن اليهود المتدينين كانوا يؤمنون بفكرة بعث الدولة اليهودية في فلسطين بحدوث معجزة إلٰهية ، يظهر معها المسيح المنتظر الذي سيعيد بناء « هيكل سليمان » ويقود العالم نحو الخير والسلام .(٦)

تمتع اليهود في فلسطين إبان الحكم العثماني بقسط كاف من الحرية الدينية ، لم تكن من نصيبهم في أي بلد أوروبي ، فخلال الحكم العثماني لم تتخذ أية إجراءات رسمية ، تستحق الذكر تناهض اليهود ، أو تميز بينهم وبين باقي السكان كما كان الحال في معظم الدول الأوروبية ، إن لم يكن فيها كلها . وإذا كانت أوضاعهم في الدولة العثمانية عامة غير مرضية ، فإنها لم تكن تختلف كثيراً عن أوضاع باقي السكان . كذلك تعزز مركز اليهود ومركز باقي الطوائف الأخرى غير الإسلامية بمنحهم امتيازات كثيرة تتعلق بالمحافظة على حقوقهم الدينية ومنحهم حكماً ذاتياً في هذا المجال ، وتوسع نظام الحماية كذلك بحيث أصبح الكثيرون من اليهود والمسيحيين بمثابة مواطنين للدول الأجنبية التي تتولى حمايتهم بواسطة قناصلها .(٧) فكان اليهود في فلسطين في القرن التاسع عشر ، أقلية ضئيلة بين السكان العرب ٢٪ ، لا تلفت النظر ، ولا تثير الشبهات حولهم لقلة عددهم وضآلة شأنهم ،(٨) وعاش الجميع في ظل الحكم العثماني لا يفكرون بغير أرزاقهم اليومية .(٩) فالسلام كان سائداً بين العرب واليهود ، لكنه سلام من النوع الذي يسود بين فريقين ليس لأي منهما علاقة بالآخر أو يربطهما علاقات محدودة .(١٠) وحقيقة الأمر أن الجاليات اليهودية كانت مفعمة بروح الانغلاق والتعصب ، والتعالي ، مما جعلها غير قادرة على الاندماج مع العرب وغيرهم ، هذا فضلاً عن عدم قدرتها على قبول نظرية التعايش مع العرب وغيرهم . وربما كانت هذه الروح لدى اليهود هي السبب في كراهية الآخرين لهم إلى غير ذلك من الأسباب الأخرى كالاستغلال والتجسس وغير ذلك .

وفي الوقت الذي كانت فيه مذابح اليهود كثيرة الوقوع في روسيا وبولونيا ، وكانت هناك حركات في فرنسا وغيرها من أعرق أمم أوروبا حضارة ترمي إلى ما يشبه القضاء على اليهود ، حتى كادت قضية دريفوس أن تشعل نار الثورة في فرنسا ، كان اليهود يجدون في البلاد الإسلامية أطيب معاملة ، ويعتبرونها الملجأ الآمن لهم وكانت هذه البلاد الإسلامية ترى واجباً عليها حماية اللاجئين إليها منهم والمساواة بينهم وبين المسلمين في المعاملة .

وقد عبرت جريدة الشمس اليهودية في عددها الصادر بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩٣٥م عن هذه العلاقة في مقال لها ، فقالت « إن هذا الحماس الذي يبدو على المهاجرين القادمين ، يرتد إلى شعورهم بخلاصهم من بلاد تضطهد الساميين ، وعودتهم إلى حضن الأوطان السامية العربية وهم يعلمون أن فلسطين الصغيرة محوطة بملايين من العرب الذين ينظرون إليها نظرة تقديس واحترام ، ولا يعقل أن يخطر ببال المهاجرين الإساءة إلى العرب في قطر وهم الذين رحبوا بهم وأفسحوا لهم صدرهم الآن وعلى مدى عصور التاريخ » .[١١]

وقبيل بدء الهجرة الأولى عام ١٨٨٢م ، حدثت عدة حوادث فردية وعادية ، منها قيام مظاهرات ضد اليهود في فلسطين ومصر بسبب تحمسهم لاحتلال العثمانيين فلسطين ، وتعاونهم مع الجيش العثماني ، وتضرر نتيجة لذلك يهود صفد ، وحين وافق السلطان سليمان عام ١٥٦١م على تحويل مدينة طبريا إلى مدينة يهودية عارض المسيحيون ، وتدخل البابا مع الصدر الأعظم لإفساد المشروع ورفض العمال العرب أن يعملوا ، ولكن والي دمشق ساعد على إتمام بناء السور إلا أن التطور توقف بموت السلطان سليم سنة ١٥٧٤م .[١٢] ولكن هيمنة العثمانيين فتحت المجال أمام الهجرة مع أن الأتراك لم يشجعوا الهجرة ولم يعرقلوها . كما هاجمت القبائل العربية صفد سنة ١٥٦٧م ، ثم دمشق سنة ١٥٨٧م ، فأخذ اليهود يهربون إلى طبريا وبيروت ودمشق ومصر ، وهاجم القحط والطاعون صفد سنة ١٥٩٩م وسنة ١٦٠٦م ، ثم هاجمها الدروز ١٦٠٤م واحتلوها سنة ١٦٢٨م وسنة ١٦٣٦م مرة ثانية . وقد عفا الجوع والمرض والنهب على الخليل ، وأنهك القرى اليهودية في القرن السادس عشر وأدى ذلك إلى ازدهار القدس بعد اضمحلال صفد ، ولكن اليهود ضعفوا نتيجة مقاومة وتسلط بعض المسؤولين عليهم .[١٣]

وتذكر بعض المراجع إلى أن يهودا حاسيد « قاد أول حركة اشكنازية إلى فلسطين في عام ١٧٠٠م واقترض أموالاً من عرب القدس على أمل سدادها من المساعدات التي ستصله . ولما لم تصل المساعدات ، وطال الزمن بالدائنين دون أن يتسلموا ديونهم من اليهود والاشكناز ،

هجموا عليهم وحرقوا كنيستهم ، وهدموا مؤسساتهم ، فعاد من الاشكناز من عاد إلى أوروبا واعتنق الباقي الدين الإسلامي أو المسيحي ، ولم يجرؤ اليهود على الظهور في فلسطين حتى عام ١٨١٦م حين أصدر السلطان إرادة سامية بإعفائهم من ديونهم .(١٤) وليس هناك ما يشير إلى وقوع حوادث أو اصطدامات تذكر بين العرب واليهود خلال الثلاثة أرباع الأولى من القرن التاسع عشر فيما عدا بعض الشكاوى اليهودية من الحكومة العثمانية ومن الباشاوات المسؤولين والتي وردت في تقارير قناصل بريطانيا . كما ذكرت نفس التقارير سوء تصرفات اليهود تجاه سكان البلاد ووجهت اللوم إليهم .(١٥)

وفي عام ١٨٧٥م بدأت موجات الهجرة تتدفق ، وكان معدل عدد المهاجرين يصل إلى ألفين في العام ، مما جعل قنصل الولايات المتحدة يكتب إلى وزارة خارجيته محذراً من أن تدفق اليهود على فلسطين من روسيا بمثل هذه الكثافة سوف يقلب الحالة في البلاد ، فلا تمضي سنوات حتى يصبح اليهود هم سكان البلاد ـ لا سكانها الأصليون .(١٦) ونتيجة لهذه الهجرة ازداد عدد اليهود فبلغ في نهاية القرن التاسع عشر خمسين ألف يهودي نصفهم تقريباً في القدس ، كما بلغ عدد مستعمراتهم تسع عشرة مستعمرة عدد سكانها ٤٣٥٠ شخصاً ،(١٧) في حين ذكرت مصادر أخرى بأن عدد اليهود في نهاية القرن بلغ ٣٥ ألف يهودي وعدد العرب ٤٥٠ ألف شخص .(١٨)

أثارت هجرة اليهود إلى فلسطين تخوف عرب فلسطين من الاستيطان اليهودي ، فقد وردت أول إشارة مبكرة لذلك من القدس في رسالة نشرتها مجلة الجوائب اللبنانية في عددها ٨/٢٥٦ عام ١٨٦٨م ، ذكر فيها الكاتب عن قدوم أحد أعضاء الجمعية الإسرائيلية في باريس (الأليانس) إلى القدس وقال فيها « إن مراد الجمعية أن تشتري حقولاً ومزارع في الأراضي المقدسة ليتعلم أولاد اليهود الزراعة والحراثة » ويلفت الكاتب نظر الدولة العليا « أن تنظر في أمرنا وتتدارك أحوالنا ، وإلا فإن اليهود لا يلبثون أن يجلونا من هذه الأرض كما أجليناهم من جزيرة العرب » .(١٩) ويتضح من ذلك أن عرب فلسطين أحسوا بالخطر الحقيقي الذي يتهددهم من وراء الهجرة اليهودية الاستيطانية ويظهر لنا أن هناك أرضية تاريخية رسبت في عقول عرب فلسطين إحساسهم بالخطر الصهيوني المتمثل في الهجرة وجعلتهم يتعتقدون أن الصهيونية هي الخطر الذي يهددهم ، وإنه ينبغي تركيز جهودهم تجاه مقاومتها . ومنذ أن تأسست مستعمرة « بتاح تكفا » والتي تعني الأمل في عام ١٨٧٨م ، احتج رؤوف باشا حاكم القدس التركي إلى القنصلين الألماني

والروسي لانتشار فكرة أحلام العودة إلى فلسطين بين اليهود وأوضح الحاكم أن ما يفعله ضد هذه المستوطنات إنما هو لإزالة هذا الحلم . وتشجع عرب فلسطين فقاموا باحتلال الأراضي التي استولى عليها اليهود ، وتكرر الهجوم من العرب مع زيادة الهجرة إلى فلسطين .[٢٠]

ومع بداية عام ١٨٨٠م بدأ التحرك الفلسطيني يسجل نضاله الوطني المتصل ضد موجات ومشاريع الاستيطان للهجرة الصهيونية ، وطالبت الحركة الوطنية الفلسطينية في كل مذكرة أو احتجاج قدم للسلطنة العثمانية بطلب واحد متكرر وقف انتقال ملكية الأرض واستملاكها للصهاينة . كما اتخذت الحركة الوطنية الفلسطينية مجموعة من الإجراءات لوقف انتقال الأرض ، إذ إنها حرمت البيع بفتاوى شرعية وشجعت عملية وقف الأرض ، واتخذت جميع الإجراءات السلبية والإيجابية لمنع انتقال الأرض إلى الأيدي الصهيونية .[٢١]

وأياً ما كان الأمر ، فلم يرافق الشعور القومي عند عرب فلسطين في القرن التاسع عشر أي شكل من أشكال العداء لليهود ، قبل بداية الغزو الصهيوني والهجرة الصهيونية الواسعة عام ١٨٨٢م ، فقد بدأت الاصطدامات المسلحة بين الفلاحين العرب والغزاة الصهاينة والمستوطنين الجدد عام ١٨٨٦م عندما هاجم الفلاحون العرب المطرودون من الخضيرة وبتاح تكفا « ملبس » التي أجلوا عنها رغماً عن إرادتهم . ودفعت هذه الاصطدامات المسلحة الحكومة العثمانية عام ١٨٨٧م إلى فرض قيود على هجرة المستوطنين الصهاينة الذين كانوا يدخلون البلاد كسياح ... بحيث لم يعد يسمح لهم بالإقامة لمدة تزيد على ثلاثة أشهر في البلاد ، وذلك بموجب جوازات سفر حمراء ، عوضاً عن جوازاتهم الأصلية عند دخول البلاد .[٢٢]

وبالرغم من ذلك فإن الهدوء ساد العلاقات بين العرب واليهود خلال السنوات العشر الأولى من الهجرة الكثيفة (١٨٨١ - ١٨٩١م) ولكنه سرعان ما انقلب إلى شعور بالشك والاستنكار للهجرة ، وبدأ العرب يفيقون ويتنبهون للخطر الصهيوني ، وأصبح مألوفاً أن تحصل اعتداءات من السكان العرب على المستعمرات اليهودية ، وسقطت الصداقة القديمة أمام عداء العرب للهجرة ، فقد كان إحساس العرب بابتعاد المستعمرات الصهيونية عنهم يزداد ، حيث حرص اليهود على أن تكون مستعمراتهم عبرانية خالصة ، وقاوموا كل ما يخل بالشكل العبراني .[٢٣]

واتضحت الرؤية والقصد من الهجرة الصهيونية أمام عرب فلسطين ، وزالت الأقنعة وأزيح الستار عنها ، ووجد عرب فلسطين أن لا مناص لهم من الكفاح ومقاومة مخططات الصهيونية بعد أن تأكد لهم أن الهجرة اليهودية هدفها استيطان فلسطين وبالتالي طرد أهلها منها على المدى

البعيد ومن هنا كان الصراع في فلسطين صراعاً بين استعمار سياسي عسكري استيطاني صهيوني وبين شعب يدافع عن حريته ووجوده وكيانه ضمن ظروف الصراع بين القوى الاستعمارية الكبرى على السيادة والأسواق في العالم . وقد حدد هذا كله طبيعة الصراع بين الطرفين كما بين التناقض بين الحركة الوطنية العربية والحركة الصهيونية . فلم تكن الجاليات اليهودية المفعمة بروح الانغلاق والتعصب المستسلمة للأحلام الصهيونية قادرة على قبول نظرية التعايش مع العرب واندماجهم مع المجتمع العربي الفلسطيني .

وانكفأ عرب فلسطين على التصدي للهجرة اليهودية ومخططات الصهيونية ، ففي أيار (مايو) ١٨٩٠ م قام وفد من وجهاء القدس بتقديم عريضة احتجاج للصدر الأعظم ضد رشاد باشا (متصرف القدس) الذي أبدى محاباة وتحيزاً للصهاينة بخلاف سلفه رؤوف باشا[٢٤] وعاد وجهاء القدس في عام ١٨٩١ م فأرسلوا إلى الصدر الأعظم في الاستانة احتجاجاً طالبوا فيه بإصدار (فرمان) « بمنع هجرة اليهود وتحريم استيطانهم واستملاكهم للأراضي الفلسطينية » بعد أن لاحظوا بداية النشاط الصهيوني لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين .[٢٥] وقد حدد هذا الاحتجاج شعاري الجماهير الفلسطينية الأساسيين خلال مراحل كفل الشعب الفلسطيني حتى عام ١٩٤٨م .

استجابت الاستانة للاحتجاج إلاّ أن التدخل البريطاني أبطل مفعول فرمان السلطنة العثمانية ، ولكن عرب فلسطين واصلوا الاتصال بالاستانة ، وصدر قرار في السنة التالية ١٨٩٢م يمنع اليهود من شراء الأراضي ويمنع أيضاً الرعايا من بيع الأراضي لليهود ، ولكن بريطانيا وبعض الدول الكبرى تدخلت ، فاستطاعت أن تقلل من فاعلية المنع بالرغم من تشبث الحكومة العثمانية برأيها حتى خلع السلطان عبد الحميد (ابريل ١٩٠٦م) .[٢٦] وهذا يوضح أن الصهيونية لجأت إلى أسلوب الرشوة للموظفين الأتراك بحيث أوقفت مفعول القرار هذا عدا عن الأساليب الملتوية الأخرى بمخالفة قوانين الإقامة والبقاء في فلسطين في ظل قانون الحماية للأجانب برعاية الدول الأجنبية .

وقد عاد الفلاحون الذين فقدوا أراضيهم فهاجموا الخضيرة وملبس عام ١٨٩٢ م ،[٢٧] وفي عام ١٨٩٦م قبل المؤتمر الصهيوني نبهت بعض صحف القاهرة إلى النتائج الخطيرة المترتبة على الهجرة الصهيونية إلى فلسطين .[٢٨]

وفي عام ١٨٩٧م أخذت المقاومة العربية تشتد في مواجهة الاستيطان الصهيوني في أعقاب المؤتمر الصهيوني الأول . فقد ترأس مفتي القدس محمد طاهر الحسيني هيئة محلية ذات صلاحيات حكومية مهمتها التدقيق في طلبات نقل الملكية لمتصرفية القدس ولمحاربة الهجرة اليهودية والاستيطان الصهيوني ، فحال ذلك دون حصول اليهود على أراض زراعية جديدة لسنوات عديدة .[٢٩] وأشارت تقارير عام ١٨٩٨م إلى أن أهل فلسطين وقفوا موقفاً حازماً ضد المشاريع الصهيونية والهجرة اليهودية وإمكان قيام إسرائيل في بلادهم لأنهم اعتبروا ذلك خطراً على حقوقهم وامتيازاتهم .[٣٠]

وشهد عام ١٩٠٠م حملة احتجاجية واسعة من العوائص الجماعية ضد تملك اليهود للأراضي الزراعية وسجلت تقارير البرت عنتيبي المعتمد الرسمي للجمعية الاستعمارية اليهودية وكانت حينذاك مؤسسة صهيونية ، بأن هذه الحملة تدل دلالة قاطعة على الوعي الفلسطيني المبكر ، وتثبت أن الصهيونية هي التي سممت العلاقات العربية اليهودية في فلسطين ، كما سجلت هذه التقارير امتداد المعارضة للصهيونية إلى صفوف موظفي الحكومة من أهالي البلاد .[٣١]

وفي عام ١٩٠١ م صدر قرار آخر يمنع دخول أي يهودي إلى أرض فلسطين (إلا إذا كان سيغادرها خلال ثلاثة أشهر) ولم ينفذ هذا القرار بسبب تدخل السفير البريطاني في العاصمة العثمانية علاوة على دخول الصهاينة إلى أرض فلسطين بمساعدة بريطانيا بطرق غير مشروعة .[٣٢] وهذا يؤكد تواطؤ بريطانيا مع اليهود نظراً لأطماعها في فلسطين والتي ترجع إلى عهد بعيد ، وبالتحديد منذ عصر الغزوات الصليبية ، ولكن أطماعها قد ظهرت من جديد إثر حملة نابليون على مصر وبلاد الشام لذا ، فإنها وقفت في طريق محمد علي بعد أن اكتسحت جيوشه سوريا بهدف إقامة دولة عربية ، فتحالفت مع الدول الأوروبية فأجبرت هذه الدول محمد علي على التراجع والعودة إلى مصر بموجب معاهدة لندن ١٨٤٠م بحجة المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية . والواقع أنها (بريطانيا) تريد تحقيق أطماعها في فلسطين لما لموقعها من أهمية اقتصادية وعسكرية ودينية ولذلك افتتحت لها قنصلية في القدس ، وأخذت على عاتقها حماية الجالية اليهودية في فلسطين بموجب نظام الحماية توطئة لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .

وكانت الصحف العربية قد عبرت عن اهتمامها بالحركة الصهيونية ومدى أخطارها ، وقد وردت إشارات عابرة في بعض الصحف العربية في مصر (وأصحابها سوريون) ، حيث ظهر

أول رد فعل للمؤتمر الصهيوني الأول في جريدة المقطم بتاريخ ٢٣ أكتوبر ١٨٩٧م في مقال بعنوان « مملكة صهيون » نبه فيه إلى خطورة الصهيونية وأهدافها الرامية إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين وإن كان يستبعد إمكانية تحقيق ذلك .[٣٣]

وفي ابريل ١٨٩٨م نشرت المقتطف مقالاً خاصاً تحت عنوان « عودة اليهود إلى فلسطين رداً على سؤال قارىء من فرانكفورت في ألمانيا عن مدى اهتمام الصحف العربية في مصر وسوريا بالحركة الصهيونية ، فأجاب المقتطف بأن ما نشر في الصحف العربية حول الحركة الصهيونية لم يكن اهتماماً خاصاً ، واستبعد المقتطف إمكانية استعمار فلسطين لأن اليهود المهاجرين إلى فلسطين حتى عام ١٨٩٨م كانوا أهل صناعة وتجارة ، ولا نظن أنهم سيعكفون على الفلاحة .[٣٤]

والواقع أن مقال المقتطف قد قلل من شأن الأطماع الصهيونية في ذلك الوقت ، كما أخطأ في تقدير قيمتها هذا فضلاً عن عدم معرفة نوعية المهاجرين اليهود إلى فلسطين ، فقد ادعى المقتطف خطأ أن المهاجرين كانوا من أرباب الصناعة والتجارة وغاب عن باله أن البلاد تشهد نوعاً جديداً من المهاجرين اعتباراً من عام ١٨٨١م ، تمكنوا من تأسيس المستعمرات الزراعية واشتغلوا بالزراعة .

وساهمت مجلة المنار على لسان صاحبها محمد رشيد رضا في التنديد بالصهيونية وفضح مخططاتها وأطماعها فعقب محمد رشيد رضا على مقال المقتطف السابق وخاطب فيه العرب منبهاً ومحذراً من هجرة اليهود إلى فلسطين .[٣٥] كما كتب مقالاً آخر بعنوان « حياة أمة بعد موتها ــ جمعية اليهود الصهيونية » فضح فيه أطماع الصهيونية وأوضح كيف أنها تتظاهر بنقل الفقراء اليهود إلى فلسطين للعيش في ظل السلطان بينما هي في واقع الأمر تطلب تملك البلاد ، ثم حمل على الحكام المسلمين والعرب وطلب من الأمة عدم الاعتداد عليهم . وفي مقال آخر اتهم رشيد رضا اليهود بالعمل على استغلال فلسطين واحداث ملك لهم فيها .[٣٦] وبذلك تكون مجلة المنار قد حذرت من الخطر الصهيوني الذي يحاول التسلل إلى فلسطين بهدف قيام وطن قومي يهودي فيها وطرد سكانها الأصليين العرب ، كما أنه يدل على الفهم والإدراك العميق لحقيقة الصهيونية وأبعادها .

وحذر كذلك المفكر العربي نجيب عازوري ــ الذي أقام في فلسطين ــ من المخططات الصهيونية وتناقضها مع أماني الأمة العربية . وفي عام ١٩٠٤م أصدر نجيب عازوري بيانه

التاريخي « بلاد العرب للعرب » ، وصدر في العام التالي (١٩٠٥م) في باريس كتابه « يقظة الأمة العربية Le Reveil de la Nation Arabe » نبه فيه إلى خطورة التوسع الصهيوني في فلسطين وأثره على الأمة العربية . وكانت تصوراته وتوقعاته تنبئ ببعد نظر فريد ورؤية ثاقبة لأبعاد الخطر الصهيوني ، وقد عبر عن مطامع القوميين اليهود في مقدمة كتابه : الصراع بين اليقظة العربية القومية والحركة الصهيونية وقال في هذا الصدد : « ... تبرز في هذا الوقت وبشكل لم يثر الاهتمام سابقاً ، ظاهرتان خطيرتان متعارضتان ، رغم طبيعتهما ، هما يقظة الأمة العربية وجهود اليهود لإعادة تأسيس مملكة إسرائيل القديمة على نطاق واسع للغاية . إنه مقدر لهاتين الحركتين أن تتصارعا باستمرار حتى تتغلب إحداهما على الأخرى . ومصير العالم كله يعتمد على نتائج هذا الصراع بين الشعبين اللذين يمثلان مبدئين متناقضين . » وفي مكان آخر من الكتاب يدرك عازوري مخطط العمل الصهيوني الذي يرسم لإعادة تأسيس ما يسمونه وطنهم القديم ، باحتلال الحدود الطبيعية لهذا الوطن فيقول : « ... هذه الحدود الطبيعية هي بالنسبة إليهم جبل الشيخ الذي يضم نهر الأردن ووادي بردى من الشمال ، مع الأراضي المحصورة بين راشيا وصيدا كمقدمة ، وقناة السويس وشبه جزيرة سيناء من الجنوب ، والجزيرة العربية في الشرق ، والبحر المتوسط في الغرب ، وبتكوينها هذا تصبح فلسطين بين يدي شعب يعرف كيف يدافع عنها » .(٣٧)

وخشيت السلطات العثمانية من انتشار أفكاره بين العرب ، خاصة بعد أن طبع بيانه (بلاد العرب للعرب) بكميات كبيرة ، ووزع في فلسطين ، فقامت الحكومة العثمانية بحركة اعتقالات في يافا وغيرها من المدن ، ولكنها اضطرت تحت الضغط العربي في عام ١٩٠٦م إلى تعيين متصرف جديد للقدس بدلاً من سلفه « رشيد بيك » الذي كان قد ساند الهجرة اليهودية إلى فلسطين وخالف القوانين العثمانية التي فرضت الحظر عليها .(٣٨)

ومما يجدر ذكره أن كتابات نجيب عازوري ،(٣٩) كانت تعبيراً عن ظهور الحركة العربية والتي تجلت فيها أول ظاهرة سياسية لمعارضة الحكم العثماني . فقد كانت يقظة القومية العربية التي ظهرت منذ مطلع القرن العشرين ، قد تطورت من حركة إحياء ثقافي إلى وعي سياسي ومطالبة بالحقوق القومية في ظل الحكم العثماني . وكان لها بالتالي تأثير على حالة العرب في فلسطين مما كان له أثر كبير على العلاقات العربية الصهيونية فحدث تغير جوهري وأصبح الصراع بين قوميتين متناقضتين .(٤٠)

ويبدو أن مشاعر الفلسطينيين العرب كانت ذات تأثير في مواقف السلطان عبد الحميد الرافضة من محاولات هرتزل لإغرائه ببيع فلسطين لليهود ، على الرغم من حاجة الامبراطورية العثمانية الماسة حينذاك للدعم المالي . فقد رفض السلطان عبد الحميد العثماني محاولات هرتزل بمنح حقوق غير محدودة للهجرة اليهودية إلى فلسطين نظير قيام اليهودية العالمية لتسديد الديون العامة للدولة العثمانية ، وأرسل السلطان إلى هرتزل يقول : « ... إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض لأنها ليست ملك يميني بل ملك شعبي ، لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه ... فليحتفظ اليهود بملايينهم لأنه لو قدر لأمبراطوريتي أن تتمزق فقد يحصلون على فلسطين دون مقابل ، ولن يتم ذلك إلاّ إذا مزقت أوصالنا ، ولن أوافق على أن تمزق وأنا حي » .(٤١)

وقد أثار توافد يهود الهجرة الثانية (١٩٠٤ – ١٩١٤م) استياء الفلسطينيين الذين عبروا في أكثر من مناسبة عن معارضتهم منذ اللحظة الأولى لوصول المستعمرين الصهيونيين . ورافق الاستياء من قدوم المستعمرين اليهود موجة من الغضب على الملاكين الاقطاعيين (آل سرسق ، مصطفى باشا ، فؤاد سعد) الذين كانوا يجنون الأرباح من بيع الأراضي للصهيونيين .(٤٢) كما اشتد العداء بين العرب واليهود في أعقاب الموجة الثانية من الهجرة اليهودية والتي أدت إلى طرد الفلاحين والعمال العرب من المستعمرات الصهيونية ، بالإضافة إلى المقاطعة الصهيونية المنظمة للمنتجات العربية ، ونتج عن ذلك أن ساد التذمر أوساط العرب الذين تأثروا مباشرة لتصرفات اليهود العنصرية ، فوقعت مصادمات في يافا بين العرب واليهود في مارس ١٩٠٨م استدعت على أثرها الحكومة المركزية قائم مقام يافا للتحقيق معه في أسباب الاضطرابات .(٤٣)

وبعد أن قامت الجمعيات اليهودية بشراء مساحة واسعة من الأرض من عائلة سرسق اللبنانية بالقرب من طبريا ، هاجم فلاحو القرى المجاورة الفنيين الذين جاءوا لمسح الأرض تمهيداً لنقل ملكيتها ، وذلك بقصد محاولة منع إتمام الصفقة . ونجح العرب بالفعل في استصدار أحكام من الباب العالي بإلغاء بعض الصفقات التي عقدها الصهاينة في مطلع القرن العشرين .(٤٤) ويلاحظ أن الفلاحين والعمال المتضررين مباشرة من الهجرة هم الذين قاموا بمهاجمة اليهود وكرهوا الملاك الذين باعوا أراضيهم ، وذلك بتأثير من الحملات الصحفية التي وصلت إلى الفلاحين والبدو في أكواخهم فألهبت مشاعرهم ، وزادت حماستهم الوطنية ودفعتهم للهجمات المسلحة على المستعمرات اليهودية والأفراد .(٤٥)

لكن الأوضاع أخذت شكلاً جديداً بعد ثورة ١٩٠٨م ،(٤٦) فقد شارك اليهود الطوائف الأخرى ابتهاجاً بإعلان الدستور ، بل فاق يهود القدس جميع الطوائف في إظهار عواطفهم ، فنشط الخطباء منهم وبالغت جرائدهم المحلية في الترحيب بالعهد الجديد . ورفعت الحركة الصهيونية في يافا ، وصرح الصهيونيون بوجوب تمثيلهم في مجلس المبعوثان (البرلمان العثماني) ليتمكنوا من عرض قضيتهم والمطالبة بالحكم الذاتي في فلسطين .(٤٧) كما أنشأوا مكتباً لشراء الأراضي في يافا وباشروا ببناء الأحياء اليهودية قرب يافا ، وأنشأوا شركات أخرى في نفس العام لعبت دوراً هاماً في توسيع الاستيطان الصهيوني وتوطيده فيما بعد .(٤٨)

وكانت مشاعر الود التي أبداها اليهود تجاه الحكم الجديد على أمل أن يحقق لهم ما عجزوا عن تحقيقه في العهد السابق ، وخاصة إلغاء الإجراءات القانونية السابقة المقيدة للهجرة والتملك . ومع ذلك فقد دخل صهيونيون في فرع حزب الاتحاد والترقي بصفتهم عثمانيين ، وسعوا لضمان مقعد واحد في مجلس المبعوثان يمثل الحركة الصهيونية ولكنهم فشلوا في ذلك . وقد نجح ثلاثة مرشحين عن القدس يمثلون الأسر الإسلامية البارزة فيها هم : روحي الخالدي ، حافظ السعيد وسعيد الحسيني . أما في ولاية بيروت فقد فاز عن لواء نابلس الشيخ أحمد الخماش وعن لواء عكا الشيخ أسعد الشقيري .(٤٩)

ومما لا شك فيه أن مشاعر الود والفرح والابتهاج التي أبداها اليهود للحكم الجديد لم تكن عفوية بقدر ما كانت مدروسة ومعروفة تماماً بالنسبة لهم ، ذلك أنه كان لهم يد في الانقلاب الذي أطاح بالسلطان عبد الحميد الذي رفض محاولاتهم المستمرة ببيعهم أراضي فلسطين وقيد هجرتهم وتملكهم الأرض بقوانين وإجراءات قانونية . وفي هذا المجال اتهمت جريدة نهضة العرب التي كان يصدرها نجيب عازوري في باريس الاتحاديين بالتحالف مع اليهود والماسونيين الأحرار ، وأن اليهود تسلطوا على جمعية الاتحاد والترقي وأنهم دبروا ثورتها على السلطان عبد الحميد بهدف إيجاد الفوارق بين الأتراك والعرب من أجل هدم الامبراطورية العثمانية ، وإقامة مملكة يهودية على أنقاضها . ومثل هذه الأفكار لم تكن بين العرب فقط بل كانت بين قسم من الأوروبيين أيضاً ، كما وجدت طريقها إلى وزارة الخارجية البريطانية .(٥٠)

ولعبت الصحافة العربية التي واكبت ثورة ١٩٠٨م ، دوراً هاماً في زيادة الوعي واليقظة العربية فظهرت بعض الصحف في فلسطين في أعقاب الثورة وإعلان الدستور ، ومن الصحف التي صدرت في فلسطين عام ١٩٠٨م (الأصمعي) في يافا لصاحبها حنا عبد الله عيسى ،

والقدس لصاحبها جورجي حنانيا ، وتبعتهما جريدة الكرمل في حيفا لصاحبها ورئيس تحريرها نجيب نصار . وأخذت هذه الصحف على عاتقها كشف المطامع الصهيونية وأخطار الهجرة وبيع الأراضي لليهود ، وكانت في طليعة تلك الصحف جريدة الكرمل والتي توقفت مراراً بسبب مقالاتها العنيفة التي كشفت الخطر الصهيوني . ومع ذلك استمر نجيب نصار في حمل لواء مناهضة الحركة الصهيونية فاضحاً أطماعها وسعيها لامتلاك الأرض وإقامة الدولة اليهودية ، وكاشفاً زيف ادعاء اليهود العثمانيين ومهيباً بالعرب أن يهبوا جميعاً لمقاومة الغزو الصهيوني العنصري لفلسطين بجمع الكلمة ووحدة الصف .(٥١)

وبعد أن جرت انتخابات مجلس المبعوثان في السلطنة العثمانية ، انتقل الصراع ضد الصهيونية داخل المجلس أيضاً ، ففي عام ١٩٠٩م أجبر النواب العرب في مجلس المبعوثان رئيس الوزراء على أن يعلن « أنه لن يسمح لليهود باستيطان فلسطين » . كما أنهم أجبروا كذلك وزير الداخلية على أن يعلن معارضته للأهداف الصهيونية .(٥٢)

وظهرت في هذه الفترة (١٩٠٩/١٠/٧م) أول وثيقة هامة عن موقف الفلسطينيين من اليهود والحركة الصهيونية ، وهي دراسة نشرها المثقف الفلسطيني يوسف الخالدي بين فيها أن هدف الحركة الصهيونية هو إنشاء دولة صهيونية في فلسطين . وقد حذر من قيام تلك الدولة لأن قيامها لا يمكن أن يتم دون اصطدامات وصراع دموي بسبب المعارضة العربية لقيام مثل هذه الدولة . ويطرح الخالدي في دراسته قضيتين هامتين : أولاهما : أنه يلمس أن في أوروبا « مشكلة يهودية » ولذلك فقد اقترح إقامة وطن قومي لليهود خارج فلسطين . وثانيهما : أنه يفرق بين الصهيونيين وغير الصهيونيين من اليهود .(٥٣)

وكان النضال داخل مجلس المبعوثان وخارجه يتفاعلان ، ففي عام ١٩٠٩م أنشئت منظمة محلية مهمتها الحيلولة دون بيع الأراضي لليهود ، كما واصلت الصحف العربية وفي طليعتها الكرمل حملاتها على الذين يبيعون أراضيهم للمهاجرين الصهيونيين . وتقدم نائب مدينة يافا باستجواب في مجلس المبعوثان تساءل فيه عما تقصده الصهيونية ، وعما إذا كانت الحركة الوطنية لليهود تنسجم مع مصلحة الامبراطورية العثمانية ، وطالب بإغلاق ميناء يافا في وجه المهاجرين الجدد من اليهود .(٥٤)

وفي النصف الثاني من عام ١٩٠٩م وجهت جريدة الأهرام هجوماً مباشراً للشركة الصهيونية لأطماعها السياسية في فلسطين وتحدثت في المقالات التي نشرتها عن مؤامراتهم الصهيونية ، وعن

بحث الاسرائيليين عن وطن لهم في فلسطين وأشارت الجريدة إلى مطامع الصهيونيين بالاستقلال في فلسطين ، وكيف أن المستعمرات الصهيونية أشبه بولايات مستقلة لا تخضع لقوانين الدولة وأنظمتها بدعوى أنها أجنبية . وطالبت الحكومة العثمانية بوضع حد لأطماع الصهيونية في فلسطين .(٥٥)

وكانت جريدة الأهرام قد أوفدت مراسلاً إلى فلسطين فدرس الوضع عن كثب ، واتصل بالفلسطينيين وشعر بمخاوفهم وعرف منهم حقيقة أطماع الصهيونية ، فكتب يقول « إن الفلسطينيين قلقون من الحركة الصهيونية فالهجرة اليهودية المستمرة تخلق لديهم المخاوف والقلق ، فالبلاد تكاد تكون في أيدي الأجانب » وأشار المراسل إلى أن الفلسطينيين يتهمون الحركة الصهيونية في فلسطين بأنها تهدف إلى إقامة دولة صهيونية مستقلة ، ويؤكدون أن بعض اليهود قد بدأوا يدفعون الرشوة للحكومة العثمانية في فلسطين لإعفاء اليهود من الخدمة العسكرية ويكرسوا كل جهودهم للنشاط الاستعماري في وقت لم يكن للمسلمين والمسيحيين خيار في تحمل أعباء تلك الخدمة العسكرية البغيضة .(٥٦)

وإزاء الشعور بالخطر الصهيوني ، استمرت الفئات الوطنية والحملات الصحفية في المطالبة من السلطات باتخاذ موقف حاسم لمنع الخطر قبل وقوعه ، فطلب مبعوث القدس في مجلس المبعوثان العثماني في التشديد على فعالية إجراءات منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، فأعادت الحكومة العثمانية العمل بالقيود التي فرضت في نوفمبر ١٩٠٠م .(٥٧) وقام بعض الوطنيين بإنشاء معهدين هما معهد الدستورية والروضة لخلق وعي قومي عن طريق نشر الثقافة القومية لمحاربة الصهيونية(٥٨) كما استمرت البرقيات الاحتجاجية وعرائض الاحتجاج والاستنكار وإرسال الوفود وكلها تطالب بوقف الهجرة ومنع بيع الأراضي لليهود ، وتتهم الصهيونية بالعمل على حرمان السكان الأصليين من أراضيهم . وحثت البرقيات المبعوثين العرب على الحصول على تأكيد من وزير الداخلية العثماني بوضع قيود مشددة لمنع دخول اليهود إلى فلسطين وتمليك الأرض لهم .(٥٩)

وواصلت الصحف العربية حملاتها على الذين يبيعون أراضيهم للمهاجرين الصهاينة ، ففي شهر أيار (مايو) ١٩١٠م هاجمت الصحف العربية آل سرسق لاعتزامهم بيع الأراضي في قريتي فولة وعفولة لليهود . وفي صيف عام ١٩١٠م كانت عدة صحف عربية نافذة قد بدأت تتبنى الحملة المناوئة لبيع الأراضي العربية للمسؤولين الصهاينة بينها صحيفة المقتبس الدمشقية

وصحف المفيد والحقيقة والرأي العام البيروتية . كما كونت جميع الصحف جبهة واحدة ضد الصهيونية فكتبت مقالات كثيرة ضد الصهيونية ، كما كشفت أيضاً أساليب ووسائل اليهود ، كرشوة الحكام العثمانيين وكبار موظفي الباب العالي بقصد تسهيل نقل ملكية الأراضي العربية في فلسطين إلى اليهود . (٦٠)

وكانت جريدة المقتبس قد حثت مجلس المبعوثان ليقف بحزم في وجه الهجرة اليهودية إلى فلسطين والتي نشطت بعد إعلان الدستور ، وأنحت بالأئمة على الأمة التي تسهل للحركة الصهيونية الوصول إلى أهدافها ، ثم دعت المبعوثين العرب لاستيضاح الحكومة عن أسباب توسع حركة الاستيطان اليهودي ومطالبتها باتخاذ كافة الإجراءات لإيقافها . وعزت نجاح الحركة الصهيونية إلى جهل الوطنيين وغفلتهم وفقرهم ، وإلى خيانة بعض الموظفين والسماسرة . وشرعت في نشر سلسلة من المقالات بعنوان الاستعمار الصهيوني نبهت فيها إلى الأضرار التي لحقت بالبلاد من جراء النشاط الصهيوني في فلسطين . وذهبت الجريدة إلى أبعد من ذلك فاتهمت الحكومة العثمانية بإزالة العقبات التي كانت قائمة في طريق الاستيطان اليهودي في عهد السلطان عبد الحميد . (٦١)

كما نشرت جريدة المقتبس خطاباً مفتوحاً من شكري العسلي قائمقام الناصرة إلى سامي باشا الفاروقي قائد الحملة الحورانية في أواخر عام ١٩١٠م ، أوضحت فيه استيلاء الحركة الصهيونية على أجزاء كبيرة من أقضية طبريا وصفد ويافا والقدس وحيفا بأسماء الرعايا العثمانيين وبواسطة السماسرة الذين يعدون أنفسهم من الأعيان . ولفتت الانتباه إلى أن الحركة الصهيونية لها علمها ويريدها الخاص وتعمل على شروعها في مخططاتها السياسية وأهابت بالنواب والحكومة أن تضع حداً للأطماع الصهيونية قبل أن تصبح فلسطين ملكاً لليهود . ومما جاء في هذه الرسالة ما يلي : « ... وعليه فإن اليهود قد سعوا ومازالوا يسعون إلى شراء القرى والأراضي والدساكر في أمبراطوريتنا البهية . إن اليهود لا يختلطون مع العثمانيين إطلاقاً كما أنهم لا يشترون منهم ، ولليهود بنك خاص هو بنك الأنجلو بلستاين الذي يقرضهم النقود بفائدة ١٪ سنوياً . لقد أسسوا في كل قرية مستعمرة لجنة مركزية ومدرسة ، ويقف على رأس كل مدينة ومستوطنة مدير ومدير منتدب ، ولليهود علم أزرق في وسطه نجمة داود ، تحتها كلمة عبرية تعني « صهيون » كناية عن القدس التي تصفها التوراة « ابنة صهيون » وهم يرفعون هذا العلم بدلاً من العلم العثماني . وفي مهرجاناتهم واجتماعاتهم ينشدون النشيد الوطني الصهيوني ، وعندما يأتي اليهود إلى دوائر الحكومة يقولون أنهم مسجلون في السجلات العثمانية وهذا كذب وخداع . ولكن عندما يجلبون

أمام محكمة عثمانية ينكشف مكرهم لأنهم يرجعون بسرعة إلى ممثليهم الأجانب (أي القناصل) لحمايتهم وتبرئتهم من جريمتهم ولإنهاء أعمالهم وشؤونهم دون معرفة الحكومة إطلاقاً ... وعندما تدخل بيوتهم ترى كيف يملأونها بالأسلحة وبنادق المرتين . ولهم خدمات بريدية خاصة وما شابه » .(٦٢)

ولعل رسالة شكري العسلي خير ما يدل على النظرة آنذاك للحركة الصهيونية فقد وضعت النقاط على الحروف وأزاحت الستار عن خفايا الصهيونية وكانت خير عون للوطنيين للمضي قدماً في مكافحة الصهيونية . ومن الجدير بالذكر أن شكري العسلي قائمقام الناصرة بذل أفضل مساعيه لمنع إتمام بيع أراضي مرج بن عامر التي تملكها أسرة سرسق اللبنانية ، ولكن تم بيعها نهائيا في مطلع عام ١٩١١م . وعندئذ أثارت الصحف العربية ضجة حول بيع هذه الصفقة والتي تبلغ مساحتها ٢٤٠٠ فدان من أجود أراضي فلسطين .(٦٣)

ومن الظواهر المثيرة للانتباه أن منشورات وزعت باليد في يافا تدعو إلى مناهضة الصهيونية ، كما بدت تظهر في الصحف الأسبوعية الهزلية رسوم كاريكاتيرية لليهود هذا فضلاً عما ساهم به نجيب نصار في الكتابة بالصحف العربية منددا بالصهيونية ، وداعياً الزعماء العرب للكتابة في الموضوع نفسه .(٦٤)

وسجل عام ١٩١١م تصاعداً في الموقف المعادي للصهيونية ، فقد قام نجيب نصار بجمع مقالاته التي كان ينشرها في أعداد جريدة الكرمل ونشرها في كتاب بعنوان « الصهيونية - تاريخها - غرضها - أهميتها » وتعرض نصار في مجموعة مقالاته بالبحث والتعليق لمراحل الحركة الصهيونية ، وفضح الأسس العنصرية التي قامت عليها كما سخر من أسلوبها في التمويه والتضليل وحمل أيضاً على الذين يمنون أنفسهم بالانتفاع من الصهيونيين في تعمير البلاد واتهمهم بالجهل والسطحية ، وأن الصهيونية قد غررت بهم ، كما هاجم الحكومة أيضاً لعدم اهتمامها بمنع الهجرة اليهودية ، أشار إلى رفع اليهود لعلمهم أثناء احتفالاتهم وبيعهم الطوابع اليهودية تحت سمع الحكومة وبصرها .(٦٥)

وعلى صعيد العمل السياسي في مجلس المبعوثان فقد عرض النواب العرب مناقشة قضية الصهيونية ، وقاد شكري العسلي نائب دمشق وروحي الخالدي نائب القدس حملة مركزة ضد الحركة الصهيونية خلال جلسة مناقشة الميزانية فقوطعت كلمة الخالدي من أحد المبعوثين ، واحتج بأن الجلسة يفترض أن تكون لدراسة الموازنة وليس لدراسة التوراة . ومن ذلك فإن

المبعوثين العرب قد تلقوا من الحكومة تعهداً أدبياً يفيد بأن الحكومة ستنظر بعناية بتنفيذ القيود المفروضة على الهجرة .[٦٦]

وكان لخطابات العسلي والخالدي أثر في إثارة المشاعر المناوئة لليهود بين الفلاحين في القرى ولما شعر العرب بأن موقف السلطة متذبذب وقراراتها لا تنفذ تماماً ، جاءوا يفكرون في حل آخر وأسلوب أمثل يدافعون به عن أنفسهم فقرروا إنشاء الحزب الوطني في يافا وكان من أبرز مؤسسيه الشيخ سلمان التاجي الفاروقي ، وكان هدف الحزب هو الحيلولة دون تقدم الحركة الصهيونية في فلسطين بمنع التعامل مع المؤسسات الصهيونية وحظر بيع الأراضي لها . وأهاب بالأمة أن تستيقظ من غفلتها ، وطالب الحكومة بما يلي :

أولاً : منع الهجرة واستخدام قانون الجواز الأحمر .

ثانياً : منع بيع الأراضي .

ثالثاً : إجراء إحصاء لليهود وإعطاء العثمانيين منهم بطاقات هوية واضحة .

رابعاً : فرض رقابة حكومية وبرنامج الدراسة الرسمي على مدارسهم .

خامساً : حظر الاجتماعات الخاصة باليهود إلاّ بعد الحصول على ترخيص رسمي من الحكومة .

سادساً : إحصاء أملاك وأراضي المستعمرات واستيفاء الأموال الأميرية منهم .[٦٧]

إن هذا البرنامج السياسي يستهدف ولأول مرة ، لا منع الهجرة وبيع الأراضي فحسب بل يستهدف إخضاع المهاجرين الصهيونيين أفراداً وأملاكاً لأنظمة الدولة وفرز اليهود العثمانيين من غيرهم . كما طالب بمقاطعة جميع المؤسسات الصهيونية واعتبر التعامل مع الصهيونيين جريمة .[٦٨]

وإثر عودة روحي الخالدي نائب القدس إلى مدينته في صيد عام ١٩١١م حث الموظفين في المتصرفية على العمل بمنع انتقال أراضي لليهود ، وفي ديسمبر ١٩١١م شرعت شورى الدولة في البحث لسن قانون يمنع اليهود الأجانب من الهجرة إلى بلاد الشام بما فيها فلسطين تنفيذاً للوعد الذي قطعته الحكومة على نفسها للمبعوثين العرب .[٦٩]

وفي عام ١٩١٢م تفجرت في فلسطين حملة معارضة وانتقاد ضد السلطات المحلية والحكومة المركزية الائتلافية ، وفقد الفلسطينيون ثقتهم بأي حكومة مهما كان لونها ، وذلك إثر قدوم

المتصرف الجديد مهدي بيك إلى القدس الذي أرسل من قبل الاتحاديين والذي أبدى تعاطفاً كبيراً مع اليهود في فلسطين ، وزار بعض المستعمرات والجمعيات الإسرائيلية ، وخطب في اليهود وطمأنهم حول موقف الحكومة منهم . كما أبدى إعجابه بما حققه الصهيونيون واعتبرهم كنموذج مثالي وقدوة للقرى العربية وأساتذة لأهاليها ، وطلب إليهم أن ينشئوا دائرة بلدية منظمة وسمح لهم باختيار حراس منهم ووعدهم بمدهم بالسلاح ، وربط مستعمراتهم بالتليفونات مع مراكز الحكومة حتى تخف قوات الحكومة لنجدتهم في حالة وقوع أي حادث ... وأشار المتصرف في نهاية خطابه بأن يبذل كل ما في وسعه لمنحهم جميع التلال الرملية حتى شاطىء البحر ليقوموا بغرسها بأشجار الكالبيتوس على حساب البلدية الجديدة .(٧٠)

أثار الخطاب موجة انتقاد في صحف فلسطين ، فتناولت صحف فلسطين والكرمل الخطاب بالتفنيد ودحض أفكاره وآرائه وطالبت الصحف الحكومة أن تعيد النظر في موظفيها وتهتم بإسناد الوظائف إلى موظفين أكفاء معتدلين وليسوا مروجي آمال جمعيات سياسية أجنبية . ولعل هذا الموقف دفع الرأي العام في فلسطين إلى اليأس من أي حكومة عثمانية مهما كان لونها .(٧١) ولا شك أن موقف الاتحاديين هذا المؤيد للصهيونيين نابع من الروابط القومية بينهم من خلال الحركة الماسونية التي جمعت بينهما قبل استلام الاتحاديين الحكم ، ولقد هاجم الرأي العام في الاستانة علناً في المساجد والصحافة ودوائر الحكومة الاتحاديين والصهيونيين والماسونيين .(٧٢)

ولم تقتصر جماعة الصحافة في فلسطين على التنبيه للخطر الصهيوني أو مقاومة البيع بل عملت على توعية أهل البلاد وذلك في محاربة الصهيونية بنفس السلاح الذي تحاربنا هي به عن طريق نشر التعليم ، وحث الأهالي على تأليف الجمعيات والشركات الزراعية والاقتصادية التي تنهض بأحوال الزراعة وتحسين أساليب الفلاحة واستثمار إمكانيات البلد والمحافظة على الصناعة التقليدية والعمل على تطويرها .(٧٤)

وواصلت الصحف العربية حملتها على الصهيونية دون لين أو هوادة ، فنشر محمد صلاح الصمادي الحسيني في القدس مقالاً في صحيفة الرأي العام عن أخطار الصهيونية العشرة أوضح فيه أن الصهيونية ترمي في النهاية إلى السيطرة على البلاد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً .(٧٥) كما حثت بعض الصحف الفلسطينية إلى الاعتماد على أنفسهم لمواجهة الخطر الصهيوني ، خاصة بعد أن أدرك العرب حقيقة تواطؤ الحكومات العثمانية سواء الاتحادية منها أم الائتلافية بسبب إفلاس خزينتها وأمل المسؤولين في سد العجز من أموال الحركة الصهيونية ، وهاجمت جريدة فلسطين

الحكومة الائتلافية ووصفت الأوامر العديدة التي صدرت بمنع الهجرة اليهودية بأنها كلها حبر على ورق ، وأنها لم تحقق الأغراض التي سنت من أجلها بل استعملها الموظفون لكسب الأموال .(٧٦)

واحتجت جريدة فلسطين ثانية على القدس عندما بيعت أراضي كفرورية وقرية أبو شرشة لليهود ، وحذرت بأنه إذا استمر هذا الحال فإن الصهيونيين سيستولون على فلسطين قرية قرية . ثم ترحيل الدولة عنها كما لفتت انتباه المتصرف إلى أن اليهود يتعاملون فيما بينهم بالنقود الصهيونية والأوراق المطبوعة ولهم أعلام تخفق على أبنيتهم ويتعلمون الفنون العسكرية تحت ستار الألعاب الرياضية وأنه لا فرق بينهم وبين أي حكومة رسمية مستقلة .(٧٧)

واهتمت الصحف المعادية للحركة الصهيونية (الكرمل ، فلسطين ، المقتبس) بمسألة الأراضي المدورة التي لعبت دورها في العهد الدستوري ، فقاومت والمبعوثون العرب مشروع الأصفر مما جعل الحكومة المركزية تتردد بين الأخذ به وصرف النظر عنه ، فاستمر المشروع معلقاً فترة طويلة ، ونشبت الحرب العالمية الأولى ولم يبت فيه . ويمكن القول أن مشروع الأصفر كان عاملاً في توحيد الجهد الفلسطيني في مواجهة الخطر الصهيوني فعندما لمحت الحكومة في صيف عام ١٩١٣م إلى نيتها بالأخذ بالمشروع ، تنادى السكان العرب في لواء نابلس فعقدوا اجتماعاً كبيراً في نابلس في صيف العام التالي للمطالبة بصرف النظر نهائياً عن مشروع بيع الأراضي بالمزاد العلني ـ مشروع الأصفر ـ وإعطائها بدل المثل بالتقسيط للمزارعين العرب الذين نزعت ملكية الأراضي من أيديهم بوسائل استبدادية وغير مشروعة . واستجابت الحكومة للمفاوضة وتراجعت عن خطوتها .(٧٨)

وشهدت البلاد طيلة صيف عام ١٩١٣م حملة عامة من الاجتماعات الاحتجاجية ضد محاولات بيع أراضي الدولة الحكومية (الميري) في بيسان لليهود واشتدت النقمة الجماهيرية حتى أن مظاهرات قامت في نابلس سنة ١٩١٣م احتجاجاً على اعتزام السلطة بيع أراضي بيسان للمنظمات الصهيونية ،(٧٩) وحرق الشعب الفلسطيني وخاصة الشباب حرشا من الأشجار التذكارية التي غرسها بعض رجالات الصهيونية عند زيارتهم لفلسطين في ذلك العام .(٨٠) كما قام الفلاحون بمهاجمة المستعمرات اليهودية في منطقة طبريا والخليل ويافا وقد ربط الصهيونيون ذلك بحسد الفلاحين لهم إلا أنها كانت اعترافاً بأن حياة المستوطنات لم تكن آمنة ، وتعددت شكاوى اليهود لدى الباب العالي لحماية سكان المستوطنات ، وكانت أشهر هذه الحوادث هي

حادثة الاشتباكات بين أهالي قرية زرنوقا ومستعمرة ديران (رحبوت) في أواخر تموز (يوليو) ١٩١٣م ، والتي بدأت بحادث صغير بين بعض أهالي القرية وحراس المستوطنة اليهودية حول قطف بعض العنب من كروم المستوطنة واتسع الاشتباك ليشمل أهالي القريتين ، واستخدم السلاح ووقع بعض القتلى والجرحى من الطرفين وبدأت القضية تأخذ دوراً مهماً فاستغل الصهيونيون الحادث لتصوير أهالي البلاد بمظهر المتوحشين المتعصبين .[٨١]

وتأسست في نفس العام « جمعية مكافحة الصهيونية » في نابلس ، وأقامت لها فروعاً أخرى في بعض المدن الفلسطينية ودعت هذه الجمعية إلى إقامة المظاهرات ضد بيع الحكومة للأراضي بالمزاد العلني ، كما أرسلت برقيات احتجاج واقترحت أن تحفظ حقوق الفلاحين في أراضيهم التي اغتصبتها الحكومة وذلك بأن يدفع الفلاح الديون المترتبة عليه بأقساط سنوية .[٨٢] وهكذا قادت جمعية مكافحة الصهيونية الصراع ضد الصهيونية وعملت على نشر الوحدة بين العناصر العربية وتقديم مساعدات في الشؤون الاقتصادية والتجارية والزراعية وإرسال ممثلين عنها للمهتمين بالمسألة .[٨٣]

واستمرت الصحافة العربية (الكرمل وفلسطين) في التنديد بالصهيونية وكشف نواياها وأخطارها وآثار ذلك استياء الحكومة العثمانية وعدم رضاها عن المعارضة العربية للصهيونية ، فكانت الحكومة كثيراً ما تعطل هذه الصحف بسبب هذه المقالات غير أن تعطيل الصحف العربية أثار شبهات العرب حول تحالف وتعاون الحركة الطورانية التركية والحركة الصهيونية ضد الحركة العربية المنادية بالاستقلال .[٨٤]

وجرت محاولات التفاهم والاتفاق بين العرب والحركة الصهيونية ، فقد جرت اتصالات بين حزب اللامركزية وجمعية بيروت الإصلاحية والحركة الصهيونية سبقها مناظرات هامة جرت على صفحات جريدة الأهرام بهدف عقد تحالف عربي صهيوني بإيعاز من حزب الاتحاد والترقي كي يرفع القيود عن اليهود في فلسطين ولكن هذه الاتصالات التي دامت أكثر من عام لم تسفر عن نتيجة تذكر وتوقفت بنشوب الحرب العالمية الأولى . ولم تعلق الصحف الفلسطينية على هذا الموقف ، فلم تعر المناظرات المشار إليها أي اهتمام وسكتت عنها هذا فضلاً عن عدم وجود أعضاء فلسطينيين في قائمة العشرين عضواً الذين اجتمع بهم ممثل الحركة الصهيونية هوتشبرغ .[٨٥]

كما انعقد المؤتمر العربي الأول في باريس في يونيو ١٩١٣م ، وخرج بمجموعة قرارات ولم يشر فيها إلى منع الهجرة اليهودية والتنديد بالصهيونية بالرغم من مطالبة عرب فلسطين ببحث هذه المسألة الصهيونية فأعربت صحف فلسطين عن استيائها من المؤتمر العربي في باريس واستنكرت تقصيره في اتخاذ موقف حازم من الصهيونية كما اتهمت المؤتمر بعدم شرعية تمثيله للعرب لأنه لم يتم انتخابه من قبل المجالس المحلية .[٨٦]

وانتقدت الصحف الفلسطينية كذلك موقف الحكومة العثمانية الذي ألغى القيود المفروضة على الهجرة اليهودية طمعاً في الحصول على المال اليهودي في أوروبا وظل عرب فلسطين يرفضون محاولات التفاهم مع الحركة الصهيونية فقد كانوا يعتقدون أنها تريد ابتلاع فلسطين والاستقلال الإداري التام بها ، بل إنها قامت بتنفيذ مخططها واستولت على قسم من البلاد ، لذلك طالبوا الحكومة العثمانية بتلبية دعوة السكان لإيقاف الخطر الصهيوني قبل ضياع فلسطين .[٨٧]

وفي غضون الأشهر التي سبقت الحرب العالمية الأولى كانت الحركة المناهضة للصهيونية في فلسطين قد بلغت ذروتها ، وظهرت دلائل جديدة على وجود معارضة منظمة للصهيونية . وكان جميع أولئك العرب الذين يتعاونون مع الصهيونية يتعرضون للنقد الشديد والشجب الأكيد كما أن الصحافة وقفت ضد الصهيونية بشكل لا لبس فيه ولعبت مكافحة الصهيونية دوراً بارزاً في الحملة الانتخابية لمعظم المرشحين الفلسطينيين للبرلمان العثماني ، وأدرك اليهود أن عرب فلسطين على استعداد تام لمحاربتهم بمختلف الوسائل في جميع أنحاء فلسطين .[٨٨]

وفي منتصف عام ١٩١٤م تأسست في فلسطين مؤسسات وطنية وخيرية في القدس بقصد « الوقوف في وجه الأخطار الوشيكة التي تهدد أرض الوطن وإنقاذ البلاد من الدمار » والمؤسسات هي : الجمعية الخيرية الإسلامية ، جميع الإخاء والعفاف ، وشركة الاقتصاد الفلسطيني العربي وشركة التجارة الوطنية الاقتصادية وكانت جميع الجمعيات المذكور تنادي بالتوعية ونشر التعليم ومساندة الصناعات الوطنية . كما أسس الطلبة الفلسطينيون بالأزهر الشريف « جمعية مقاومة الصهيونية » وأسس طلبة نابلس في بيروت جمعية « الشبيبة النابلسية » وتأسست جمعية « المنتدى الأدبي » في حيفا . وشاركت النساء العربيات الفلسطينيات في هذا المجال فأسسن جميعة « الإحسان العام » وجمعية « يقظة الفتاة العربية » وكانت كلتا الجمعيتين وطنية تتولى برعايتها الصناعات المحلية .[٨٩]

ولعبت الصحافة العربية المعادية للصهيونية في الأشهر السبعة الأولى من عام ١٩١٤ دوراً حساساً وبارزاً في توعية الرأي العام والتمهيد للقيام بأعمال منظمة منسقة ضد الصهيونية وقد هاجمت الصحافة دون هوادة « موقف أولئك الأثرياء المتنفذين الذين تعميهم مصالحهم الشخصية فلا يرون الخطر الصهيوني المحدق بهم ويؤثرون حاضراً ذهبياً على حساب مستقبل مظلم لأبنائهم ».(٩٠) ووجهت جريدة الكرمل نداءً عاماً إلى الفلسطينيين حذرتهم فيه من خطر الصهيونية المتمثل في احتلال فلسطين وطرد شعبها منها، وحثتهم على القيام بأعمال كثيرة منها: توجيه ضغط على الحكومة للعمل على حظر بيع الأراضي الأميرية للأجانب وتطوير الصناعات والمهن الوطنية وعدم التعامل مع الصهيونيين ومنع البيع إلى اليهود بالقوة، ومحاولة منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، والمطالبة بفتح مدارس عربية وجعل اللغة العربية لغة التعليم وأخيراً حثت الشباب على ممارسة الأعمال الزراعية والتجارية والصناعية.(٩١)

وكشف هذا النداء النقاب عن أن الفلسطينيين قد فقدوا الأمل أن تتخذ الحكومة أي إجراء ضد العدوان الصهيوني ومن ثم تحركوا نحو تنظيم أنفسهم والاعتماد عليها وحدها. وعشية الحرب العالمية الأولى كان الفلسطينيون يفكرون بالانقضاض على الحكم التركي فانضم الكثيرون منهم إلى جمعيتي « العهد » و « الفتاة » اللتين كانتا تناضلان في سبيل استقلال العرب ووحدتهم وذلك إيماناً من الفلسطينيين بأن الصهيونيين حلفاء الأتراك في وجه النهضة العربية. ولم يكن مما يثير الدهشة بالطبع أن يكون شباب فلسطين قد بدأوا التفكير باللجوء إلى العنف آخر الدواء ضد الصهيونية، وذلك في وقت كانوا فيه يعملون أيضاً على القيام بثورة ضد الأتراك لتحقيق استقلال العرب.(٩٢)

وإزاء هذا الشعور المعادي للصهيونية تصاعدت النقمة الشعبية نتيجة اتضاح المخاطر الصهيونية من جهة وإقدام السلطة المركزية على تقديم تنازلات من جهة أخرى، فأدى ذلك إلى تحول في الموقف الشعبي وذلك باللجوء إلى العنف فأصبح قتل المستوطنين اليهود أكثر تواتراً ولم يكن محصوراً بشمال فلسطين كما كانت الحالة فيما مضى تقريباً.(٩٣) وقامت مظاهرات في مدينة القدس تعبر عن غضبتها على الصهيونية، ورجموا بالحجارة مؤسسات الصهيونية ومتاجرها.(٩٤)

وتعود نقمة الشعب الفلسطيني على اليهود بسبب اعتداءات الآخرين على العرب هذا فضلاً عن عمليات الشراء وطرد الأهالي من الأراضي فقد تجاوز الصهيونيون حدودهم في القرى التي

اشتروها : واعتدوا على سكان القرى المجاورة وحاولوا إكراههم على الخروج من أرضهم وبيعها لهم . من ذلك ما حدث في قرية (لوبيه) في قضاء طبريا وما حدث في إحدى القرى القريبة من القدس . يضاف إلى ذلك حوادث التعديات المختلفة التي يشنها سكان المستعمرات على أبناء القرى المجاورة مستغلين تساهل السلطات معهم وسماحها لهم بالتسلح .(٩٥) وجرت اشتباكات بين أهالي قرية غابة الجركس وبين أهالي الخضيرة من اليهود بسبب اعتداء اليهود على أرض تخص العرب فوصفت جريدة مرآة الغرب هذا الاعتداء بقولها « هذا ما توصل إليه المستعمرون الإسرائيليون الذين كانوا قبلاً يوصفون بالمسالمة والجابنة ، أصبحوا الآن وقد اشتد ساعدهم فأخذوا يعتدون على أهالي القرية موصوفين بالشدة والبأس . فماذا يكون نصيب سائر البلاد معهم بعد أن يزداد عددهم ويملكون مواردها الاقتصادية ويقبضوا على أعنة الثورة .(٩٦) كما لمس الأهالي العرب بأن اليهود الأجانب الذين حلوا بفلسطين لهم كل مقومات الحكم الذاتي في مستعمراتهم وإحيائهم ، فلهم نقودهم وبريدهم وعملهم ونشيدهم ولغتهم العبرية واحتفالاتهم القومية الخ .(٩٧)

ولما اشتدت وطأة الحركة الصهيونية على عرب فلسطين ، استغاث الأعيان في القدس ويافا وغزة في ابريل ١٩١٤م بالمنتدى الأدبي في الاستانة وناشدوه العمل بحزم ضد التيار الصهيوني الجارف الذي هدد المواد الاقتصادية للفلاح والتاجر ، ولفتوا الانتباه إلى نفوذ الحركة الصهيونية في دوائر الحكم في المتصرفية ، وأن حكومة إسرائيلية تأسست بينهم ، تقاضي وتجازي وأوضحوا أنه إذا كانت الحاجة إلى الإصلاح شديدة فإن الحاجة إلى دفع الخطر الصهيوني أشد ، ثم ناشدوا المنتدى باسم الوطنية أن يستعمل كل ما لديه من الوسائل المشروعة لينبه الحكومة إلى الخطر الصهيوني .(٩٨)

كما اتخذ المجلس الإداري في نابلس قراراً يقضي بعدم البيع للصهيونيين في اللواء ، فحاولت الحركة الصهيونية السعي لفصل ارتباط عدد من قرى اللواء وإلحاقها بقضاء يافا بدعوى قربها ليسهل عليهم شراء الأرض فيها ، واشتدت مناوئة الصهيونية فوزعت منشورات في القدس تحذر من الخطر الصهيوني ، وتضمنت نداء حاراً إلى أبناء البلاد ثم طلبت منهم ما يلي :

١ ـ مطالبة الحكومة بإلحاح لصد تيار الهجرة الجارف .
٢ ـ السعي لتقوية التجارة الوطنية والصناعية .

٣ ـ عدم بيع الأراضي لليهود .
٤ ـ النظر في كل الوسائل التي تدعو إلى عدم هجرة العرب من فلسطين .[٩٩]

وهكذا واصلت الصحف حملتها على الصهيونية بالرغم من تعطيل بعضها دون لين أو هوادة ، حتى بداية الحرب العالمية الأولى في آب (أغسطس) ١٩١٤م . ومع ذلك فإن نشوب الحرب لم يمنع العرب من التفكير فاتخاذ إجراء ما ضد الصهيونيين ، إذ يستفاد مما قاله بيرلمان أو الأوراق والمستندات التي وضع الأتراك أيديهم عليها عام ١٩١٥م تكشف عن وجود خطة للتخلص من الصهيونية تقضي بإضرام النار في المستعمرات اليهودية وطرد السكان اليهود . وجاء في تلك الأوراق أن الصهيونيين هم ألد أعداء العرب وهذا هو السبب الذي من أجله كان الأتراك على استعداد تام لمساعدتهم .[١٠٠]

وبنشوب الحرب العالمية الأولى ، توقف النشاط ضد الحركة الصهيونية لانتقال مركز نشاطها إلى مجالات عالمية أوسع من جهة ، ولأن الشرق العربي نفسه قد شغلته أحداث الحرب بعد أن أصبح أحد ميادينها العسكرية من جهة أخرى ، ولتغير موقف تركيا نفسه من اليهود إبان الحرب أيضاً ، فقد ألغت تركيا امتيازات نظام الحماية التي كان المواطنون الأجانب ومن ضمنهم المهاجرون اليهود يتمتعون بها .[١٠١] واعتبرت تركيا يهود روسيا مواطنين دولة معادية كانت في حالة حرب مع تركيا ، فاضطر حوالي ٣٠ ألف يهودي إلى النزوح من فلسطين وبذلك وصل عدد السكان اليهود فيها في نهاية الحرب إلى نحو ٥٦ ألف نسمة بدلاً من ٨٥ ألف عند بدايتها . ونال اليهود أيضاً في فلسطين نصيبهم من سياسة الاضطهاد[١٠٢] والتي انتهجها جمال باشا في سوريا الكبرى ، فقامت السلطات العثمانية بحظر النشاط الصهيوني في البلد ، وأمرت بحل كل المنظمات الصهيونية العاملة فيه . وقام جمال باشا بنفي عدد من الزعماء الصهيونيين البارزين من فلسطين وكان من بينهم دافيد بن غوريون واسحق بن زفيه وغيرهم . كما اشتدت الاجراءات القمعية ضد اليهود في أواخر عام ١٩١٧م عندما اكتشفت السلطات العثمانية شبكة تجسس (نيلي) وتعمل بين يهود فلسطين لصالح بريطانيا ونتيجة لذلك فرض الأتراك حصاراً حول بعض المستوطنات اليهودية ، ونكلت بسكانها واعتقلت أعداداً كبيرة منهم ، وأعدمت بعض قادة شبكة التجسس (نيلي) وزاد من حدة الإجراءات التي اتخذت ضد سكان المستوطنات اليهود الاضطراب الذي ساد في صفوف القوات التركية مع بدء الهجوم البريطاني من سيناء على جنوب فلسطين .[١٠٣]

أدى الغاء تلك الامتيازات إلى خروج تظاهرات تأييد عربية في يافا والقدس وقام المتظاهرون في إحداها بوضع قبعة من ذلك النوع الذي يستعمله المستوطنون الصهيونيون على رأس كلب ورجموه بالحجارة وهم ينشدون « الحماية مثل الصرماية » (الحذاء) .(١٠٤)

كما أبدى عرب فلسطين تأييدهم وترحيبهم بالإجراءات القمعية ضد اليهود ، ولكنهم مع ذلك كانوا غير راضين عن موقف السلطات لمنعهم من تنفيذ مخططاتهم السرية ضد اليهود . وربما كانت السلطات العثمانية آنذاك معذورة لأنها مشغولة في ميادين الحرب وتخشى قيام حرب أهلية في منطقة العرب قد تؤثر عليها ولربما كان بعض الساسة العثمانيين متعاطفين معهم .

وهكذا كانت نظرة عرب فلسطين للحركة الصهيونية نظرة واقعية ، فقد أحسوا بخطر الغزو الصهيوني الذي يتهددهم وكانوا يخشون من قيام دولة صهيونية في فلسطين من خلال تحركات الصهيونية فأدركوا أن المعركة مع الصهيونية هي معركة بقاء أو فناء وأن نجاح الحركة الصهيونية يعني أن الصهيونيين سيمتلكون البلاد ونصبح نحن فيها غرباء وكان التخوف الشعبي يذهب أبعد من ذلك وكأنه يتنبأ بالمستقبل ، ويخشى من المصير الأسود الذي سيلاقيه الفلسطينيون إذا لم ينهض المخلصون ويخفوا لانقاذهم .

ولا شك أن الحملات والنشاطات التي قام بها الفلسطينيون كانت تستهدف تعبئة البلاد ضد الحركة الصهيونية (جمعيات ، برقيات ، مظاهرات ، شركات) وممارسة ضغط على السلطات من أجل اتخاذ إجراءات تحول دون تمكن الحركة الصهيونية من التوسع والتغلغل وتعبئة الرأي العام فلسطينياً وعربياً ضد السماسرة وبائعي الأراضي وكبار الملاك . وعلى ذلك فإن مقاومة عرب فلسطين للصهيونية كانت سابقة على وعد بلفور . وهذا يدل على وعي وإدراك عظيمين لأبعاد الخطر الصهيوني إذا ظهر مع تبلور الصهيونية السياسية عام ١٨٩٧م وبدأ الصراع العربي الصهيوني منذ ذلك الوقت ، ولكنه ظل ضيقاً ومحدوداً حتى إعلان وعد بلفور ، ثم زاد تأججاً بعد وضع سياسة الوطن القومي موضع التطبيق خلال الانتداب البريطاني على فلسطين ، وقد حدد هذا كله طبيعة الصراع بين الطرفين ، وأوضح التناقض بين الحركة الوطنية العربية والحركة الصهيونية . ولا شك أن خلفية الصراع وجذوره تعود إلى عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية فمن الناحية السياسية تسعى الحركة الصهيونية إلى السيطرة والاستعمار والاحتلال شأنها في ذلك شأن الدول الاستعمارية الكبرى لما بينهما من ترابط في المصير والوجود والمصالح المشتركة ومن الناحية الاجتماعية فإن المجتمع الفلسطيني

يعتبر مجتمعاً زراعياً في الدرجة الأولى ومجتمع كهذا لا بد أن يكون محافظاً ، وأن يكون أهله ملتصقين بالأرض كما أن مثل هذا المجتمع ينظر بريبة إلى الغريب دائماً لما بينهما من تفاوت واختلاف في العادات والتقاليد . أما من الناحية الاقتصادية فقد شعرت فئة الفلاحين والعمال والحرفيين بأن الصهيونية قد قدمت تحدياً لكل هؤلاء بما في صفوفها من حرفيين وخريجي جامعات وعمال مهنيين ورؤوس أموال وخبرة يهودية عالمية في كل المجالات وأنه بالتالي ستسيطر الصناعة اليهودية على الصناعة العربية وتعمل على عرقلتها ، ولذا كانت المعارضة العربية للصهيونية معارضة عنيفة وشرسة ، وتطورت إلى معركة بقاء أو فناء استمرت حتى بعد قيام الحرب العالمية الأولى خلال فترة الانتداب البريطاني على فلسطين إلاّ أن الظروف الدولية والعربية والمحلية كانت أقوى من طاقات الفلسطينيين وإمكاناتهم للحيلولة دون تحقيق نصر حاسم للصهيونية بتحقيق حلمهم وإنشاء دولتهم عام ١٩٤٨م ■

■ ■ ■

● الهوامش ●

(١) محمد أديب العامري : عروبة فلسطين في التاريخ ، بيروت ١٩٧٢، ص ١٦، ٤١، ٧٤ .

(٢) منذ أن فتح المسلمون فلسطين ، سمح الخليفة عمر بن الخطاب لليهود بالعودة إلى القدس ومنحهم قطعة أرض على جبل الزيتون لإقامة الصلوات ، كما سمح لهم بعد ذلك السلطان صلاح الدين الأيوبي بالعودة بعد الاضطهاد والإبادة التي لاقوها أثناء الحروب الصليبية ، وأخيراً سمح لهم العثمانيون بالعودة إلى فلسطين بعد طردهم من الأندلس . انظر نجلاء عز الدين : العالم العربي ، القاهرة ١٩٦٣م ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٣) زاهية قدورة : تاريخ العرب الحديث ، بيروت ١٩٧٢م ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٤) نجيب صدقه : قضية فلسطين ، بيروت ١٩٤٦م ، ص ٧ .

(٥) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، بيروت ١٩٦٦م ، ص ٤٣ .

(٦) أمين محمود عبد الله : نشأة النزعة الاستيطانية في الفكر اليهودي الغربي خلال القرن التاسع عشر « مجلة العلوم الاجتماعية ، جامعة الكويت ، العدد الثاني ، يوليو ١٩٧٩م ، ص ٩ » .

(٧) صبري جريس : تاريخ الصهيونية ، الجزء الأول ، بيروت ١٩٧٧م ؛ ص ٦٠ - ٦٢ .

(٨) اختلفت التقديرات حول عدد اليهود قبيل وصول طلائع المهاجرين الجدد إليها ، ويستفاد من إحصاء جرى للسكان اليهود عام ١٨٣٩م فذكر أن عددهم نحو ٦٥٠٠ نسمة نصفهم في القدس وارتفع هذا الرقم في السنة التي تليها ليصل إلى ١٠,٥٠٠ نسمة ثم ارتفع ليصل إلى ١٤,٥٠٠ نسمة في

عام ١٨٥٦م ، ووصل في نهاية عام ١٨٨١م إلى ٢٢,٣٥٠ نسمة وكان أكثر من نصف أولئك السكان يعيشون في القدس بينما يعيش الباقون في صفد وطبريا وعكا وحيفا ونابلس والخليل وفي قريتي شفا عمرو والبقيعة انظر صبري حريس المصدر السابق ص ٥٦ - ٦٠ . بينما يذكر التقرير الإحصائي لحكومة فلسطين ١٩٤١م بأن عدد اليهود في عام ١٨٣٩م لم يتجاوز ٦٠٠٠ نسمة في حين بلغ عدد العرب ٣٠٠٠٠٠ نسمة أي أن نسبة اليهود لم تتعدى ٢٪ ولم يتجاوز عدد اليهود في عام ١٨٨٠م عشرين ألفاً .

انظر Statistical Abstract of Palestine 1914 P. 18

(٩) محمد بديع شريف وآخرون : دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة ، القاهرة ١٩٦٣م ، ص ٣٧٩ - ٣٨٠ .

(١٠) تقرير اللجنة التي عينها المندوب السامي لفلسطين للتحقيق في الاضطرابات التي وقعت في يافا عام ١٩٢٩م ، ص ٦٠ - ٦٢ .

(١١) عادل غنيم : « موقف فلسطين من اليهود والصهيونية من الحرب العالمية الأولى حتى اضطرابات البراق ١٩٢٩م . » مجلة الشرق الأوسط ، العدد الأول ، القاهرة ١٩٧٤م ، ص ٢١٤ .

(١٢) Ben Gurion, David : The Jews in their land (London 1966) PP. 228-237.

(١٣) ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية ١٨٨٢ - ١٩٤٨م بيروت ١٩٧٤م ، ص ٨٦ وانظر كذلك Ben Gurion, D. OP. CIT. P. 320

(١٤) مانويل فرانك أ : بين أمريكا وفلسطين ، ترجمة يوسف حنا ، منشورات دائرة الثقافة وزارة الثقافة والإعلام ، عمان ١٩٦٧م ، ص ١٢-١٣ .

(١٥) أنيس صايغ . الهاشميون وقضية فلسطين ، ص ٤٣-٤٤ .

(١٦) مانويل ، فرانك أ : بين أمريكا وفلسطين ، ص ١٠ .

(١٧) ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية ، ص ٧٨ .

(١٨) مازن البندك وخيرية قاسمية : أطلس الصراع العربي الصهيوني ، بيروت ١٩٧٨م ، ص ٧ .

(١٩) خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ - ١٩١٨م ، بيروت ١٩٧٣م ، ص ٣٢ .

(٢٠) المصدر السابق .

(٢١) الأرض الفلسطينية بين الشرعية والاغتصاب ، منشورات اتحاد الحقوقيين الفلسطينيين ، الكويت ١٩٧٥م ، ص ٢٣ .

(٢٢) كامل محمود خله : فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ - ١٩٣٩م ، بيروت ١٩٧٩م ، ص ٧ .

(٢٣) عبد العزيز عوض : « الحركة العربية في متصرفية القدس » مجلة الشرق الأوسط ، القاهرة العدد الأول يناير ١٩٧٤م ، ص ١٤٥ .

(٢٤) ناجي علوش : المصدر السابق ص ٨٩ .

(٢٥) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، بيروت ١٩٧٠م ص ٤٩ .

(٢٦) عبد العزيز عوض : « الحركة العربية في متصرفية القدس » « مجلة الشرق الأوسط ص ١٤٥ .
(٢٧) كامل خله : المصدر السابق ص ٧ .
(٢٨) عبد الوهاب الكيالي : المصدر السابق ص ٤٩ .
(٢٩) مجاهد علي شراب : « كفاح ونضال الشعب العربي الفلسطيني منذ الحرب العالمية الأولى » دراسة تاريخية » جريدة الوطن الكويتية ، ١٠/٨/١٩٧٦م .
(٣٠) عبد الوهاب الكيالي : المصدر السابق ، ص ٥٠ .
(٣١) Mandel, Neville : Turks, Arabs add Jewish Immigration into Palestine (London 1955) P. 214
(٣٢) Mandel, Neville : OP. CIT., P. 214
(٣٣) خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، ص ٣٤ .
(٣٤) المقتطف ، ابريل ١٨٩٨م ، مجلد ٢٢ ، ص ٣١ . اقتباساً من عبد العزيز عوض ، مصدر سابق ، ص ١٤٦ .
(٣٥) المنار ، مجلد ١ ، جـ ٦ ، ص ١٠٨ .
(٣٦) مجلة المنار ، مجلد ٤ ، جـ ٢١ ، ص ٨٠١-٨٠٩ ، نقلاً عن خيرية قاسمية ، المصدر السابق.
(٣٧) أسعد رزوق : إسرائيل الكبرى . دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني ، بيروت ١٩٦٨م ، ص ١٤٩-١٥٠ .
(٣٨) المصدر السابق .
(٣٩) كان نجيب عازوري يعمل في الإدارة التركية في القدس قبل أن يلجأ إلى باريس ليؤسس عصبة الوطن العربي ، والتي ينص برنامجها على تكوين امبراطورية عربية تمتد من دجلة والفرات إلى قناة السويس ومن البحر المتوسط إلى البحر العربي ويكون أسلوب الحكم فيها دستورياً مبنياً على المساواة لكل المواطنين أمام القانون . انظر خيرية قاسمية ، المصدر السابق ، ص ٣٧ .
(٤٠) خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، ص ٣٧ .
(٤١) حسان حلاق : « موقف الدولة العثمانية من النشاط الصهيوني الدولي » ١٨٩٧ - ١٩٠٤م ، مجلة شؤون فلسطينية ، العدد ٧٤ يناير ١٩٧٨م ، ص ١٦٢ .
(٤٢) Mandel, Neville : OP. CIT., P. 300
(٤٣) فايز صايغ : الاستعمار اليهودي في فلسطين ، بيروت ١٩٧٣م ، ص ٩ ، ١٠ .
(٤٤) ناجي علوش : المصدر السابق ، ص ٩٥ .
(٤٥) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الجديد ، ص ٩٦ .
(٤٦) في عام ١٩٠٨م أجبرت (ثورة تركيا الفتاة) السلطان عبد الحميد على إعلان الدستور وإجراء انتخابات للهيئة التشريعية (المبعوثان) وقد نص الدستور العثماني على إطلاق الحريات وحق إصدار الصحف ووجوب إجراء انتخابات للمجلس التشريعي . انظر الكيالي ص ٥٢ .
(٤٧) Mandel, Nevill : OP. CIT., P. 92
(٤٨) ناجي علوش المصدر السابق ، ص ٩٥ .

(٤٩) خيرية قاسمية : المرجع السابق ، ص ٦٥ .
(٥٠) Mandel Neville : OP. CIT., PP. 93-94
(٥١) خيرية قاسمية : المرجع السابق ، ص ٦٧ .
(٥٢) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، ص ٤٧ .
(٥٣) الأهرام ١٩٠٩/١٠/٧م . وانظر كذلك الأرض الفلسطينية بين الشرعية والاغتصاب ، ص ٢٨ .
(٥٤) ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية ، ص ٩٨ .
(٥٥) عبد العزيز عوض : المرجع السابق ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .
(٥٦) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٦٠ .
(٥٧) Mandel, Neville : OP. CIT., P. 96
(٥٨) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ص ٤٦ .
(٥٩) Mandel, Neville : OP. CIT., P. 95
(٦٠) خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، ص ٧٢ .
(٦١) أنظر جريدة المقتبس مارس ١٩١٠م ، ١٥ مايو ١٩١٠م ، ٤، ٦، ٨ سبتمبر ١٩١٠م ، ٢٠ نوفمبر ١٩١٠م نقلاً عن عبد العزيز عوض ص ١٥٠ .
(٦٢) Mandel. Neville : Turks, Arabs and Jewish Immigration into Palestine PP. : 90 - 99
(٦٣) Mandel, Neville : OP. CIT., P. 95
(٦٤) ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية ، ص ٩٩ - ١٠٠ .
(٦٥) عبد العزيز عوض : المصدر السابق ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .
(٦٦) Mandel, Neville : OP. CIT., PP. 97 - 98
(٦٧) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٦٣ .
(٦٨) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، ص ٤٧ - ٤٨ .
(٦٩) عبد العزيز عوض : المصدر السابق ، ص ١٥٠ .
(٧٠) خيرية قاسمية : المصدر السابق ، ص ١١٩ .
(٧١) نفس المصدر : ص ١٢٠ - ١٢١ .
(٧٢) المصدر السابق ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .
(٧٣) انضمت صحيفة أخرى جديدة في المنادي أنشئت في فبراير ١٩١٢ لصاحبها سعيد جارالله وابتعت خطاً سياسياً واضحاً هو مكافحة الصهيونية ، كما تركت معارضة الصهيونية آثارها على المؤلفات والآثار الأدبية مثل كتاب إسعاف النشاشيبي « الساحرة واليهودي » وكتاب معروف الأرناؤول « فتاة صهيون » انظر خيرية قاسمية ص ١٣٩ .
(٧٤) الكرمل ١٩١٣/١/٧م نقلاً عن خيرية قاسمية ص ١٣٦ .
(٧٥) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ص ٦٦ وانظر Mandel, Neville : OP. CIT. P. 476
(٧٦) جريدة فلسطين ، العدد ١٨٥ ، ١٩١٢/١١/٢م .
(٧٧) عبد العزيز عوض : المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

(٧٨) خيرية قاسمية : المصدر السابق ، ص ١٧٩ - ١٨٨ .
(٧٩) ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية، ص ١٠٤ .
(٨٠) عادل غنيم : « موقف فلسطين من اليهود والصهيونية من الحرب العالمية الأولى حتى اضطرابات البراق مجلة الشرق الأوسط ، القاهرة العدد الأول يناير ١٩٧٤م ؛ ص ٢١٥ .
(٨١) خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، ص ١٩٧ .
(٨٢) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٧١ .
(٨٣) Mandel, Neville : OP. CIT. PP. 102-103
(٨٤) المصدر السابق ، ص ٧٢ .
(٨٥) عبد العزيز عوض : المصدر السابق ص ١٦٠ - ١٧٧ .
(٨٦) المصدر السابق .
(٨٧) خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، ص ١٨٨ - ١٩٠ .
(٨٨) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٧٢ - ٧٣ .
(٨٩) ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية ، ص ١٠٤ .
(٩١) الكرمل ١٩١٤/٧/٧م نقلاً عن الكيالي ص ٧٥ - ٧٦ .
(٩٢) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، من ٧٦ - ٧٧ .
(٩٣) Mandel, Neville : OP. CIT. : P. 103
(٩٤) عادل غنيم : « موقف عرب فلسطين من اليهود والصهيونية من الحرب العالمية الأولى حتى اضطرابات البراق ١٩٢٩م » مجلة الشرق الأوسط ، ص ٢١٥ .
(٩٥) خيرية قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، ص ٢٥٤ .
(٩٦) مرآة الغرب ، ١٩١٤/٤/٤م نقلاً عن خيرية قاسمية ص ٢٥٤ .
(٩٧) المصدر السابق .
(٩٨) عبد العزيز عوض : « الحركة العربية في متصرفية القدس » مجلة الشرق الأوسط القاهرة ، يناير ١٩٧٤م ؛ ص ١٥٦ .
(٩٩) المصدر السابق .
(١٠٠) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٨٢ .
(١٠١) صبري جريس : تاريخ الصهيونية الجزء الأول بيروت مركز الأبحاث ١٩٧٧م ، ص ٢٩٠ .
(١٠٢) في عام ١٩١٥م اقتحم الرائد حسن الجابي اجتماعاً سرياً لفرع الجمعية الصهيونية في مدينة يافا وضبط أوراقاً سرية هامة وخطيرة ، ونفي بعض رجالات الصهيونية خارج المدينة وأبرق أهل يافا إلى السلطان العثماني في ذلك الوقت مظهرين خطر الصهيونية . انظر عادل غنيم ، « موقف عرب فلسطين من اليهود والصهيونية ومن الحرب العالمية الأولى حتى اضطرابات البراق ١٩٢٩م ، ص ٢١٥ » .
(١٠٣) صبري جريس : تاريخ الصهيونية ، جـ ١ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .
(١٠٥) المصدر السابق : ص ٢٩١ .